دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دور القرصنة البحرية في التقارب الدبلوماسي بين المغرب وإسبانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال رحلة "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد"

محمد شونم
باحث دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدُّ القرصنة البحرية من الوسائل السائدة في البحار والمحيطات منذ القدم، لكنها شهدت تطورًا ملحوظًا خلال القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا والعالم الإسلامي، حيث سُميت في هذا الأخير بالجهاد البحري. وعرفت القرصنة البحرية ارتفاعًا كبيرًا في وتيرتها خلال القرن الثامن عشر الميلادي، حتى أضحت التجارة الدولية تخشى منها بشكل كبير، فعملت الدول الأوربية، في بادئ الأمر، على مواجهتها بالقوة العسكرية، لكنها فشلت في القضاء عليها، خصوصًا وأن القرصنة الإسلامية كانت لها حنكة كبيرة وتجربة رائدة في هذا الميدان منذ القرن السادس عشر الميلادي، وترعاها سلطة البلاد، وتحميها من القوة العسكرية الأوربية، فصمدت القرصنة البحرية داخل البحار والمحيطات، مما دفع ببعض الدول الأوربية إلى تغيير تكتيكاتها، فسلكت الوسائل الدبلوماسية لتأمين سفنها من هذه الظاهرة التي أصبحت تقضُّ مضاجع الحكومات الأوربية وتُجارها؛ ومن بين الدول التي نهجت الطرق الدبلوماسية دولة إسبانيا، التي أنهكتها القرصنة المغربية والجزائرية على حد سواء، فاستغلت الأسرى والكتب العربية الإسلامية الموجُودَيْنِ بإسبانيا، لاستمالة السلطان المغربي محمد بن عبد الله، وجَرِّهِ نحو التفاوض، بغرض انتزاع معاهدة تضمن بها حماية سفنها التجارية من القرصنة المغربية على الأقل؛ فأطلقت بعض الأسرى المغاربة كَحُسن نية منها لطرق باب السلطان المغربي ودعوته إلى تعيين سفير إلى إسبانيا؛ فنجحت في مسعاها بعد إقدام السلطان المغربي محمد بن عبد الله على تعيين بعثة مغربية على رأسها أحمد الغزال تتجه نحو إسبانيا بغرض التفاوض على تحرير الأسرى واسترجاع بعض الكتب الإسلامية المهمة. واستغل أحمد الغزال هذا الحدث فدوَّن كثير من الأحداث التي شاهدها وعاشها بنفسه، وجمعها في كتاب سماه بـ "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد"، حيث دون فيه تفاصيل الأحداث منذ انطلاقه إلى وصوله إلى مدينة مراكش مع البعثة المغربية والإسبانية والأسرى المحررين والكتب المسترجعة، واستقبالهم من طرف السلطان المغربي محمد بن عبد الله؛ وقد حققت الرحلة مبتغاها وأهدافها، رغم الهفوة التي وقعت فيها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ يونيو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ يوليو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى؛ القرصنة البحرية؛ إسبانيا؛ الدبلوماسية؛ معاهدة؛ تحرير الأسرى والكتب

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.184997

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد شونم. "دور القرصنة البحرية في التقارب الدبلوماسي بين المغرب وإسبانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال رحلة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١١١ – ١٢٢.

Corresponding author: chounem02i@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

تعتبر الرحلة في الميدان التاريخي من المصادر التي تقدم مادة تاريخية مهمة، إلى جانب كتب الفتاوى والنوازل والتراجم والكناشات وغيرها. وكتب الرحلات تتيح الوقوف على حيثيات وتفاصيل الأحداث، وبالتالي تمكن من الوقوف على حقائق تاريخية مهمة. ولقد اشتهر المغاربة في آدب الرحلات، إذ الموقع الجغرافي للمغرب البعيد عن الشرق الإسلامي، والقريب من أوروبا الغربية، ساهم في تعدد وجهات الرحلات المغربية، فولَّى المغاربة أنظارهم شطر المشرق لأغراض متعددة (حج بيت الله الحرام، رحلة سفارية، استكشافية، دبلوماسية...)؛ كما وجهوا أنظارهم نحو أوربا القريبة، في سفارات تتوخى الحفاظ على مصالح المغرب أو معالجة ظروف ووقائع طارئة.

وتعتبر رحلة أحمد الغزال المعنونة بـ: «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد»، من أهم الرحلات المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي، إذ جاءت في ظرفية تاريخية كانت تعرف نوعا من الصراع بين الدول الإسلامية والدول المسيحية للسيطرة على التجارة البحرية. ورغم أن كفة الميزان التجاري كانت مائلة تجاه أوروبا، إلا أن الدول الإسلامية لجأت إلى الجهاد البحري كوسيلة للسيطرة على المنافذ البحرية. ورحلة أحمد الغزال جاءت كنتيجة للصراع الذي كان رائجا في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ سعت إسبانيا جاهدة للحصول على معاهدة تضمن بواسطتها أمن سفنها من القرصنة المغربية التي توغلت بشكل كبير -إلى جانب القرصنة الجزائرية -في البحار والمحيط الأطلنطي، وأصبحت تغزو السفن الأوربية المحملة ببضائع ثمينة تشكل عائدا ضخما على ميزانية الدولة، مع ما انضاف إلى ذلك من سبي وأسر وغنائم.

وبما أن السلطات الإسبانية كانت تتوفر على أسرى من المسلمين، وكتب عربية - إسلامية، فقد استغلت هذه الجوانب كقنطرة للمرور إلى السلطان المغربي محمد بن عبد الله، لحثه على التفاوض في عقد معاهدة ضمن سفنها من القرصنة المغربية؛ ومن أجل هذا الغرض أرسل السلطان المغربي محمد بن عبد الله أحمد الغزال على رأس بعثة مغربية إلى إسبانيا وأوصاهم على توقيع معاهدة مع إسبانيا بحرًا لا برًا؛ مقابل افتكاك الأسرى المغاربة وبعض الجزائريين، من حفظة كتاب الله والمسنين والعاجزين، واسترجاع بعض الكتب الإسلامية المتواجدة بالخزانات الإسبانية.

وقد حَقَّقَت رحلة أحمد الغزال المبتغى الذي أُرسلت من أجله، وقام المؤلف بتدوين جميع المعلومات والحقائق التي وقف عليها في الطريق، أو التي قام بزيارتها رسميا أو عن طريق النزهة؛ وبذلك فرحلة أحمد الغزال مستمدة من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وممتعة. فعندما يغوص القارئ في مضامين الرحلة يجد نفسه أمام أسلوب راقي من الوصف الدقيق والمشاهد المثيرة، إذ يصور المؤلف الأشياء كأنما تشاهدها مباشرة بنفسك، كما أن الرحلة تَنِمُّ عن حس تاريخي مليء بالأحداث الوصفية للمآثر التاريخية، والتقارير السياحية، والمشاهدات المثيرة، والمقارنة بين المدن الإسبانية والمغربية إلى غير ذلك من الأحداث المثيرة للشغف.

أولاً: السياق التاريخي للرحلة

خضعت بلاد الأندلس منذ فتحتها من طرف طارق بن زياد سنة (٩٢ هـ/ ٧١١م)، للحكم العربي الإسلامي، واستمرت لعدة قرون، نتج عنها إنشاء حضارة راقية انبهرت منها الأعين، ومازالت آثارها موجودة إلى يومنا هذا تشهد على ذلك. ويرجع سقوط بلاد الأندلس في يد القوة المسيحية إلى عدة أسباب وعوامل، أهمها ضعف القوة العسكرية المغربية في عهد المرينيين والوطاسيين، مما تقلصت معها الإغاثة العسكرية إلى بلاد الأندلس، إضافة إلى لجوء بعض الزعامات الأندلسية المتمردة إلى التحالف مع الممالك المسيحية، مما أدى إلى ضعف شوكة المسلمين بالأندلس، بينما في المقابل، بدأت قوة المسيحيين تتقوى، خاصة بعد عقد تحالف بين الممالك المسيحية للقضاء على التواجد الإسلامي في البلاد الأندلسية، وملاحقتهم في معاقلهم، وجاء قول محمد رزوق في هذا الصدد: «وقد تجسدت هذه الوضعية في عهد الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، إذ جعلت من بين أهدافها إخراج العرب والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم متجهة إلى الوحدة مع أراجون ممثلة في شخص ملكها فرناندو الكاثوليكي الذي كانت تحركه نفس الأهداف».[1]

وبهذا الوحدة بين القوتين الكاثوليكيتين بدأت المعاقل الإسلامية تسقط واحدة تلوى الأخرى في يد المسيحيين، وسرعان ما بدأ الطرد التعسفي في حق المسلمين، خاصة مع سقوط مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢م، آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس، التي ظلت تسارع الموت لسنوات عديدة بفضل الإغاثة العسكرية والجهادية للدولة المرينية المتذبذبة. كما يُعدُّ سقوط الأندلس حدا فاصلا بين حضارتين

داخل الأندلس، الأولى إسلامية (عربية – أمازيغية)، والثانية مسيحية غربية.[٢]

وبذلك تكون غرناطة آخر حصن للإسلام بالأندلس، وقد عانت من جميع فظائع الحصار الذي استمر تسعة أشهر، إلا أن استسلام هذه المدينة لم يتم عن طريق الحرب، وإنما بواسطة تعهد صريح لاتفاق رسمي موقع يوم ٢١ محرم ٨٩٧هـ موافق ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، بمقتضى بنود اشترطها السلطان أبو عبد الله من سلالة بني الأحمر، ومقبولة بأداء اليمين من طرف ملكة قشتالة، لاحترام هذه الشروط من قبل الملكين الكاثوليكيين لفائدة جماعة مسلمة تعيش تحت السيادة المسيحية.[٣]

وبمجرد تنازل بني الأحمر على منطقة غرناطة، وخروجه منها، حتى بدأ المسيحيون يخرقون بنود الاتفاقية واحدا تلو الآخر، إذ لم تمر إلا سنين، حتى زحفوا على مكتسبات الاتفاقية الموقعة.[٤] وأمام إصرار بعض الأندلسيين على البقاء في ديارهم وأراضيهم، رغم الضغوطات والإكراهات التي تعرضوا لها، دفع بالملك الإسباني فليب الثالث إلى إصدار قرار الطرد النهائي للموريسكيين من الأندلس، مرغمين تحت حدّ السيف.[٥] ونُفذ هذا الطرد بطرق بشعة، حيث تعرض أغلب الأندلسيون للنهب من قبل ربان السفن، والأثمان الباهظة للنقل، وأنواع أخرى من النهب والتعذيب والترهيب.[٦] وبعد خروج الموريسكيون من الأندلس تشتتوا في بقاع العالم الإسلامي، واستقر أغلبهم - رغم المعاناة والعراقيل التي لاقوها - بشمال إفريقيا، وكان للمغرب الأقصى النصيب الأوفر من الأندلسيين المستقرين به.[٧]

وعلى العموم، فطرد الموريسكيين من بلادهم قصرا، والمعاناة التي لاقوها أثناء تهجيرهم، خلفت لهم حقدا كبيرا اتجاه المسيحيين، مما دفع بفئة عريضة منهم إلى تعاطي الجهاد البحري (القرصنة البحرية) انتقاما من المسيحيين، وخاصة الإسبان. فكانت السواحل المتوسطية والأطلسية مسرحا لهذا الجهاد البحري، وتزعمه في المغرب الأقصى قيادات لها كفاءة كبيرة في هذا الميدان، على رأسهم أبو عبد الله العياشي، الذي بقي على أمر الجهاد حتى مقتله. يقول الناصري في هذا الصدد: «لما قتل أبو عبد الله العياشي فرح النصارى بمقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة أيام، وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة إحدى وخمسين وألف {٢٩ أبريل ١٦٤١م}».[٨] ومن بعده تزعم الخضر غيلان أمر الجهاد بالمناطق الشمالية ضد الاحتلال الأجنبي برًا وبحرًا.[٩]

وجد الأندلسيون ضالتهم في الجهاد البحري (القرصنة البحرية)، أولاً: لرد الاعتبار إلى ذواتهم جراء ما لقوه من معاناة تأبى النسيان؛ وثانيا: ضمانا لقوت عيشهم اليومي؛ وثالثا: استجابة إلى نداء الجهاد الذي كان متداولا دوما بين صفوف عامة المسلمين وخاصتهم. وبعد توسع رقعة الجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، أضرَّ ذلك بالمصالح الاقتصادية للدول الأوربية، مما اضطرتها إلى الدفاع عن نفسها أحيانا، واللجوء إلى سياسة الصلح والمهادنة أحيانا أخرى، مع الدول التي تنطلق منها عملية الجهاد البحري.

وفي هذا السياق التاريخي جاءت المساعي الإسبانية إلى عقد معاهدة مع الدولة المغربية للحفاظ على مصالحها التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ لم تجد بَابًا تطرقه سوى استغلال باب تبادل الأسرى والإفراج عن بعد الكتب الإسلامية التي كانت ما تزال متواجدة في الخزانات الإسبانية. وقد بادر العاهل الإسباني كارلوس الثالث في إطلاق سراح بعض الأسرى المغاربة، وأرسل بعثة إسبانية إلى المغرب لملاقاة السلطان المغربي محمد بن عبد الله لتسليمه بعض الهدايا ورسالة تطلب منه تعين سفارة إلى إسبانيا للتفاوض باسم السلطان، وتختار الأسرى الذين سيفرج عنهم، والكتب التي يمكن استرجاعها.[١٠] وبهذا جاءت رحلة أحمد الغزال إلى إسبانيا على رأس البعثة المغربية.

ثانيًا: التعريف بصاحب الرحلة

إن المعلومات المتوفرة حول أحمد الغزال قليلة، إذ لم يتعرف على سنة ولادته، واكتفت بعض كتب التراجم بذكر معلومات شحيحة عنه، حيث يقول عنه صاحب سلوة الأنفاس: «الفقيه الأديب، الكاتب الرئيس الأريب؛ السيد أحمد بن الأديب الكاتب الفقيه السيد المهدي الغَزَّال. كان (...) فقيها أديبا، بل كان آخر أدباء الوقت، وبعثه السلطان سيدي محمد ابن عبد الله سفيرا لجزيرة الأندلس مثل أبيه من قبله. وألف في سفره رحلة ذكر فيها عجائب تلك الأرض، وله غيرها من التآليف في الأدب. توفي – رحمه الله- سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، ودفن بصحن الزاوية المذكورة».[١١]

ونجد له ترجمة أخرى في موسوعة أعلام المغرب، من خلال كتاب "تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين" لعبد الكبير الفاسي، حيث تطرق إلى ترجمته بشكل شحيح، حيث اقتصرت الترجمة على سنة وفاته، ومساره العلمي، وبعض كتبه، إذ نجدها على الشكل التالي: «وفي فجر يوم الأحد خامس جمادى الأولى عند الطلوع توفي أحمد بن المهدي الغزال الحميري

الأندلسي، كان علامة مشاركًا أديبًا شاعرًا مطلعًا كاتبًا مقتدرًا، له تأليف مفيدة، منها الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية في مدح مخدومه، واليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية، والنور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل، ورحلة إلى بلاد الأندلس سماها نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، ونتيجة الفتح المستنبة من سورة الفتح إلى غير ذلك من التأليف، ودفن بزاوية الشيخ عبد القادر الفاسي بالقلقلين. تقدمت وفاة والده حوالي عام ثمانين ومائة وألف».[١٢]

وأحمد الغزال ولد في مكناس وتربى بها، في منزل غير بعيد من القصر الملكي، حيث كان أبوه يشتغل كاتبا لدى السلطان المولى إسماعيل، بينما نجد أحمد الغزال اشتغل كاتبا للوزير والمؤرخ الزياني لفترة من الزمان، إذ كانت تربطه صلة وثيقة به، ومن بعد انتقل إلى الاشتغال كاتبا للسلطان محمد بن عبد الله. وأسرة الغزال تنحدر من أصل أندلسي، إذ كان أجداده يقيمون في مدينة مالقة، قبل أن يهاجروا إلى المغرب.[١٣]

ثالثًا: القرصنة البحرية أو ما سمي بالجهاد البحري عند المسلمين، وسعي بعض الدول الأوربية لعقد معاهدات مع المغرب خلال القرن الثامن عشر الميلادي

عند الغوص في محتوى الرحلة نجد أن أحمد الغزال أسهب في تمجيد الأدوار الكبيرة التي كان يقوم بها السلطان المغربي محمد بن عبد الله لتشجيع الجهاد البحري ضد السفن الأوربية في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، ونوه بالانتصارات التي حققتها القرصنة المغربية في عهده حتى ضاق الأوربيون منها ذَرْعًا، وطلبوا المهادنة والصلح من السلطان المغربي محمد بن عبد الله، إلا أن هذا الأخير رفض في بادئ الأمر كما تشير إلى ذلك الرسالة التي أوردها المؤلف في كتاب الرحلة التي دونها، وبرر موقفه ذلك بالشرع الإسلامي الذي يحث على جهاد الكفار حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون. وحقيقة الأمر، فموقف عدم رضوخ السلطان المغربي للمساعي الأوربية راجع إلى المداخل الهامة التي يحققها الجهاد البحري لخزينة الدولة.

ولكن هذا الرفض الذي أعلنه السلطان المغربي محمد بن عبد الله اتجاه أوربا اعترضته أمور اقتضتها المصلحة الإسلامية والمنفعة العامة، ومن أبرزها فك أسرى المسلمين واستيراد الأسلحة واسترجاع الكتب، مما دفع بالسلطان المغربي إلى عقد معاهدات مع عدة دول أوربية، باستثناء فرنسا التي رفض السلطان المغربي إبرام اتفاقية معها على حد تعبير المؤلف، وبالتالي فالسفن الفرنسية كانت تتعرض إلى القرصنة باستمرار مما جعل فرنسا كل مرة تطلب الصلح والمهادنة مع المغرب، ولما خاب مسعاها اتجاه السلطان المغربي، لجأت إلى تعبئة أساطيلها الحربية وتوجهت صوب ميناء سلا فقصفته، فرد الجانب المغربي بالمثل على السفن الفرنسية فاضطرتها إلى الفرار.

إلا أن فرنسا أعادت الهجوم على مرسى العرائش ودخلتها وأنزلت عدة جيوش وضباط بالمدينة، إلا أن المجاهدين المغاربة أغفلوا الجيوش الفرنسية لمدة معلومة، وقاموا بتطويقهم ومباغتاتهم، فقتلوا وأغرقوا بعضهم، والباقي أسروهم، فانهزمت الجيوش الفرنسية شر هزيمة على حد تعبير المؤلف، الذي عبر عن ذلك بقوله: «فهم بين غريق وقتيل وأسير، وبقيت بين المسلمين من أجفانهم عدة مشحونة بالأنفاط والعدة ووقعت فيهم غزوة شهرتها كافية عن التصريح بها، وأخبارها في بر العجم والعرب غنية عن تصنيفها، وقد كساهم الله ثوب المذلة والهوان وملأ قلوبهم رعبا، وعمهم الجذع والخذلان (....) فلم يسعهم إلا الاذعان وطلب الأمن والآمان، بحيث تؤمن مراكبهم مدة سنة، ليبلغ الكل منهم في المدة المذكورة. مأمنه وتحملوا أشياء هي على غلبهم أقوى دليل، شاهد على ما هم فيه من الهوان والمذلة والوبال والعويل، فأجابهم لما طلبوه عن محض الفضل، مولانا المؤيد المنصور، فأمنوا بأمانه للأجل المذكور».[١٤] وانطلاقًا من هذا الكلام يتضح أن فرنسا رغم خسارتها للجنود والعتاد فقد حصلت على معاهدة صلح مع الدولة المغربية لمدة سنة، تضمن سلامة سفنها من القرصنة المغربية.

الغريب في القرصنة التي أعدها السلطان محمد بن عبد الله أنها كانت تعمل لمدة شهرين، مما دفع بالأوربيون إلى التقليل من الإبحار في هذين الشهرين تجنبًا للقرصنة المغربية، وهذا ما تفطن له السلطان المغربي محمد بن عبد الله، فلجأ إلى خطة أرشدته إلى بناء مرسى الصويرة التي بناها على الطراز العصري، بحيث أصبحت –حسب المؤلف- لا تضاهيها المراسي الأوربية والإسلامية، وجهزها بأحسن الأجهزة العسكرية وفتح أبوابها لجميع التجار حتى أصبحت مداخلها كبيرة.

ولما علمت بعض الدول، وخاصة الأوربية منها، ببناء مرسى الصويرة خشيت من توسيع الجهاد البحري المغربي ضد سفنها التجارية، فسعت إسبانيا إلى الحصول على ضمانة سفنها من القرصنة المغربية، فبدأت تفكر كيف تطرق باب السلطان

المغربي، فلجأت إلى استعمال الأسرى المسلمين والكتب العربية الإسلامية كقنطرة للمرور إلى باب السلطان المغربي محمد بن عبد الله.

رابعًا: المفاوضات المغربية الإسبانية لتحرير الأسرى المسلمين، واسترجاع الكتب الإسلامية

بعد مراسلات كثيرة بين العاهل الإسباني والسلطان المغربي، نجحت مساعي الدولة الإسبانية للتقرب من الدولة المغربية وربط علاقات دبلوماسية معها على أساس المصلحة المتبادلة. وقد تُوجت هذه العلاقة بإرسال السلطان المغربي محمد بن عبد الله رسالة إلى العاهل الإسباني تضمنت عدة مطالب، أبرزها الاعتناء بأسرى المسلمين مع إعطاء أولوية التفضيل للعلماء وحملة كتاب الله والشيوخ كما يفعل السلطان المغربي محمد بن عبد الله مع القصاوصة والرهبان المسجونين في المغرب.[١٥] وقد جاء رد سريع من طرف إسبانيا بإطلاق سراح بعض السجناء المسلمين وإرسالهم إلى السلطان المغربي، مع رسالة تتضمن الخدمة والطاعة للسلطان المغربي، فكان رد هذا الأخير بالمثل، إذ أطلق بعض أسرى الإسبان، ووعد العاهل الإسباني في رسالة بعثها إليه مع عامل سبتة يعده بإطلاق سراح ما تبقى من الأسرى الأوربيين وضمان حماية السفن الإسبانية من الجانب المغربي، فسُرَّ العاهل الإسباني كارلوس الثالث غاية السرور بقرار السلطان المغربي، وبادر بإرسال بعثة إسبانية برئاسة الأب "برتولومي خيرون" تحمل هدية ضخمة إلى السلطان المغربي، مع رسالة تطلب منه تعيين أحد السفراء المغاربة إلى إسبانيا؛[١٦] وأيضًا سعى العاهل الإسباني - عبر مضمون الرسالة - إلى عقد معاهدة مع المغرب، وإطلاق سراح الأسرى المسجونين في كلا الدولتين. وقد استقبل السلطان المغربي محمد بن عبد الله هذه البعثة في ٢ فبراير ١٧٦٦م وتسلم منهم الهدية وسلمهم أسراهم، وبعض الأسرى الأوربيين، وخاصة الشيوخ الطاعنين في السّن، وافيا بعهده الذي وعد به العاهل الإسباني، وردَّ على المسعى الإسباني بإرسال بعثة مغربية وضع على رأسها أحمد الغزال،[١٧] من أجل غرض فك بعض الأسرى المسلمين بإسبانيا، واسترجاع الكتب العربية المتواجدة في الخزانات الأندلسية، وذلك بعض أن أعطى تعليماته للبعثة عن الكيفية المتعلقة بعزل الأسرى حسب مرتباتهم في الدين والسن والرتب المهنية، ويُطمأنوا الباقي بالفرج القريب.

توجهت البعثة المغربية من مكناسة الزيتون نحو ثغر طنجة للعبور نحو إسبانيا، ولما وصلت إلى مدينة طنجة طلب منها حاكم سبتة العبور انطلاقا من مدينة حكمه، رغبة منه، في تحسين صورته أمام العاهل الإسباني كارلوس الثالث، إلا أن البعثة المغربية لم توافق على ذلك، لأنها لم تتلقى تعليمات سلطانية للمرور من سبتة، إلا أن حاكم سبتة لجأ إلى خطة اضطرت بواسطتها السفن التي تتواجد بها البعثة المغربية إلى الإبحار نحو مدينة سبتة للانطلاق من هناك، وكان وصولها للمدينة بتاريخ منتصف ذي الحجة من عام ١١٧٩هـ/ الموافق ٢٥ ماي ١٧٦٦م، حيث بدأ أحمد الغزال يصف كل ما تلاحظه وتبصره عينه؛ وقد دَوَّن كل ذلك في كتابه المعنون: "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد".

وأثناء سفارته نحو إسبانيا تطرق أحمد الغزال إلى وصف عدة مدن إسبانية، خصص لكل واحدة منها وصف يختلف عن الآخر، من حيث الكيف والكم، والشح والإطناب. فلما وصلت البعثة المغربية إلى مدينة مدريد عاصمة الملك الإسباني، عجلت المنية برحيل والدة العاهل الإسباني، مما جعل هذا الأخير يتأخر في ملاقاة البعثة المغربية، فاستغل أحمد الغزال هذا التأخير للاطلاع الجيد على قصر الملك الإسباني بمدينة مدريد، ووصفه بأدق المواصفات والتمجيد والتعظيم، لأنه اعتبره من أعظم القصور التي شاهدها في رحلته، إضافة إلى وصف ما بداخله من دور للحيوانات كالأسود والغزلان، وطيور مختلفة الألوان وجميلة لم تراها عين المؤلف قط في بلاد العرب.

استغرقت مدة إقامة البعثة المغربية بمدينة مدريد ما يناهز شهر ونيف، ليتم استدعاءها لاستقبال الملك في مدينة "لاكرانخة"، وهي من المدن الأربعة التي يسكنها ملك إسبانيا. ومنذ انطلاق البعثة المغربية إلى مدينة لاكرانخة وأحمد الغزال يصف كل ما تقع عليه عينه من الحشود والمباني والمزارع والجنود وحراس الملك وقصره، وكذلك وصف الاستقبال الضخم الذي أعده كارلوس الثالث للبعثة المغربية، ليصل إلى وصف المبتغى الحقيقي من الرحلة، وهي الاتفاقات حول فك الأسرى، واسترجاع بعض الكتب الإسلامية الموجودة في إسبانيا، والتي كانت مِلْكًا للمسلمين في الأندلس.

وبعد استقبال العاهل الإسباني كارلوس الثالث للبعثة المغربية بالعاصمة مدريد، دخل في مفاوضات معها، فجاءت مضامين شروط المعاهدة على الشكل التالي:

- «تسريح الأسرى الطاعنين في السن والبصراء {المكفوفين} والمبطولين {الغير قادرين على العمل} ومن في معناهم من أي إيالة كانوا.
- ثم ما نجده من أسارى الإيالة المولوية عند تسراد جميعهم واستيعاب الأسارى بأسمائهم وألقابهم.
- فكاك رجلين من الجزائريين، أحدهما طالب علم، والآخر متسيد بمروءة، وقد تقدمت منه الكتب لسيدنا، أيده الله، طالبا إنقاذه من الأسر، مصاحبة لكتاب الفقيه العلامة المذكور، وهو السيد مصطفى ابن علي البابا دغلي وكان سيدنا أعزه الله حتم وأكد على فكاكهم وتسريحهم مما هم فيه من الأسر، فأدرجتهما في الزمام المذكور، ثم ختمته بمسائل اشتكى منها الكثير من الأسرى، منها:
- إذا مات أحدهم يتولى دفنه إخوانه من المسلمين، ومبروكه لهم.
- ألا يوليَّ عليهم أحد من المتنصرة حال الخدمة، لأنه أضر عليهم من مطلق النصارى.
- ألا يمنعوا من كتب رسائلهم بالقلم العربي.
- أن يرفق بهم في حالة الخدمة ولا يكلفوا ما لا يطيقون.
- مريضهم يعالج بالاسبيطال مثل غيره من المرضى، وألا يلزموا بالخدمة وقت صلاتهم، ولا يهملوا فيما لا بد منه من الكسوة والمأكول».[١٨]

وبعد ترجمة هذه الشروط إلى الإسبانية وقراءتها، وافق عليها ملك إسبانيا بدون مانع واحد، بل رحب بها، وسأل البعثة المغربية إن كانت لها مزيدا من المطالب الأخرى، فأجابت البعثة بالنفي لينتهي اللقاء مع ملك إسبانيا كارلوس الثالث.

عند انتهاء المفاوضات بين الأطراف المتفاوضة اتجهت البعثة المغربية نحو مدينة مدريد للاستراحة، وفي انتظار تنفيذ المطالب، قامت البعثة المغربية بزيارة للأسرى المسلمين للاطمئنان عليهم ووعدهم بإطلاق سراحهم من طرف العاهل الإسباني حسب الاتفاق المبرم بين الدولتين المغربية والإسبانية. وبعد شهر من إقامة البعثة المغربية بمدريد في انتظار أخذ الكتب التي وعد بها الملك الإسباني البعثة المغربية، تم في آخر المطاف الإفراج عن الكتب الإسلامية بمدريد ومنحت للبعثة المغربية، فأخذت هذه الأخيرة تلك الكتب مع ما انضاف إليها من كتب حصلت عليها من إشبيلية، وغادرت مدريد متوجهة إلى مدينة "أرنخويس" التي يوجد بها إحدى قصور الملك الإسباني، المعدة لاستراحة الملك والضيافة الدبلوماسية الأجنبية.

وقبل الشروع في العودة إلى المغرب قامت البعثة المغربية بزيارة تفقدية لأحد السجون بمدينة "شغوبية" للاطمئنان على حال السجناء المسلمين والتخفيف من معاناتهم. حيث يقول المؤلف في هذا الصدد: «وقبل التشييع بأربعة أيام، ذهبنا إلى مدينة "شغوبية" لملاقاة الأسرى والرياس المسجونين بها، وقد تعدد منهم رسائل يطلبون رؤيتنا متشفعين بسيد الشفعاء في الوصول إليهم فإذا هم أربعة عشر، فسلمنا عليهم ورحبنا بهم، وقد أنسنا غربتهم ووعدناهم بالخير من سيدنا، أيده الله وبشرناهم بأن سيدنا مجتهد في فكاك أسرهم وإنقاذهم مما هم فيه، وأقمنا معهم من الصباح إلى العصر ولم تفتر لنا ولهم عبرة شفقة منا عليهم، وهم أكثر منا حسرة عند مشاهدة إخوانهم المؤمنين».[١٩] وبعد ذلك أوصى أحمد الغزال قائد السجن الاعتناء بالسجناء مقابل قضاء حاجته عند وزير ملك إسبانيا، فوافق بالاعتناء بهم والإحسان إليهم، فما كان من السجناء إلا أن أثنوا على سلطان المغرب الذي اهتم لحالهم حسب قول أحمد الغزال.

وأثناء الطريق التقى وفد البعثة المغربية بالأسرى المسلمين الذين كانوا في حالة يرثى لها، حيث جاء وصف أحمد الغزال هذه المعاناة على الشكل التالي: «أثناء الطريق، التقينا بإخواننا الأسارى وفرحنا بهم، وقد أنسنا غربتهم وخبرناهم أن سيدنا، نصره الله، مهتم بشأنهم مستعمل البعض والكل، أعزه الله في السعي في فكاكهم وإنقاذهم من الأسر ودفعنا لهم ما أنعم به سيدنا عليهم، (...) فكتبت في الحال مستشفعا في إزالة السلاسل عنهم والأكبال وتسريح رجل منهم أصابه البارود بعينيه فعمي، فأجاب الطاغية سراح الرجل الأعمى وإزالة السلاسل عن إخواننا المؤمنين».[٢٠] ويضيف قائلاً: «وجملة الأسارى المستعملين الآن في خدمة الطريق الذاهبة من مدريد إلى الاسكوريال، مائتا أسير وأربعة، وكانوا قبل ثلاثمائة فر منهم البعض وكرم بالشهادة البعض، وبقي منهم الآن العدد المذكور. وهؤلاء الأسرى جلهم من أهل الجزائر وبعضهم من الترك نسأل الله أن ينقذهم مما هم فيه ويفرج عن جميعهم بمنه وفضله».[٢١]

وبعد التفرغ من الأسرى المسجونين، انتقل أحمد الغزال للحديث عن سكان مدينة "قرطجنة" المسلمين والمملوكين كعبيد للمسيحيين بمدينة "قرطجنة"، حيث عمل سكانها المسلمين على استقبال البعثة المغربية بالتحيات والشكر

والامتنان للسلطان المغربي، فاستقبلتهم البعثة المغربية بحفاوة. فاستغل المسلمون المتواجدون بهذه المدينة، لحظة تواجد أعضاء البعثة المغربية بين ظهرانيهم، فاشتكوا لهم الأوضاع الصعبة التي يتخبطون فيها، وطلبوا من البعثة المغربية السعي في نقلهم إلى البلاد الإسلامية وتخليصهم وأبنائهم من الوقوع في عملية التنصير، وتحريرهم من الضغوطات التي تمارس عليهم من الحكومة الإسبانية وشعبها المسيحي، حتى أصبحت حياتهم أتعس من حياة الأسرى على حد تعبير أحمد الغزال الذي وصف هذه الوضعية على الشكل التالي: «لما قربنا منها {مدينة قرطاجنة} ولم يبق بيننا وبينها إلا قدر مسافة، برز لملاقاتنا جماعة من المسلمين رجالا ونساء وصبيانا ولهم ضجيج يعلنون بكلمة الإخلاص (...) فسلمنا عليهم ورحبنا بهم وسألنا عن حالهم، فإذا هم مسرحون وحكمهم حكم الأسير، لا يستطعون الخروج من البلاد إلا إذا أدوا ما أوجبه النصارى على المُسَرَّح ما لم يكن في قيد أسر الطاغية (...) ومن جملة ما قطع أكبادهم الخوف على صبيانهم بعدهم وتركهم في بلاد الكفر، وقد طال وقوفنا معهم، وهم يبكون ويتضرعون، ونحن أكثر منهم بكاء وحسرة عليهم، فسكنا روعهم ووعدناهم بخير من سيدنا أيده الله (....) وكان يوما لم نر مثله بكاء وفرحا حيث أعتق الله هؤلاء القوم وأنقذ صبيانهم من بلاد الكفر على يدي سيدنا الكريمتين، وانفصلوا عنا فرحين مسرورين».[٢٢]

وبعد طول الانتظار حان الوقت لتنفيذ قرار إطلاق سراح عدد الأسرى المتفق عليه بين الدولتين حسب الشروط السابقة الذكر، حيث يقول المؤلف في هذا الصدد: «وقد كان تقدمهم بأمر من طاغيتهم بمباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأسارى من تسريح الطاعنين في السن والمبطول والأعرج والأعمى ومن في معناهم والرفق بهم وبمن بقي منهم في الأسر من غير إيالة سيدنا ومن كان من الإيالة المولوية يسرح ثم يميز الحامل لكتاب الله وأن يعظم ويحترم».[٢٣] وأثناء الفرز والاختيار فِمَن يستحق الإفراج عنه من الأسرى حسب شروط المعاهدة، اعترضت البعثة المغربية صعوبات جمة في اختيار الأسرى الواجب إطلاق سراحهم وفقا للشروط المبرمة في الاتفاقية، وتتلخص في العجز والسن والبثر في أحد أعضاء الجسم، وحملة القرآن الكريم والانتساب للدولة المغربية؛ وكان الاختيار وفق هذه الشروط صعبًا على البعثة المغربية لأن الكل كان يدعي أنه عاجز عن العمل، أو أنه كبير في السن، أو ينتمي للدولة المغربية، فتم الفصل في ذلك بعدة خطط من بينها: الفحص الطبي والرجوع إلى أصل الأسير حتى تتضح هويته إلى غير ذلك من الإجراءات الأخرى. وفي الأخير تمكنت البعثة المغربية فرز الأسرى الذين أُطلق سراحهم، فتم كسوتهم والرفق والإحسان بهم من طرف الملك الإسباني امتثالا لوصية السلطان المغربي محمد بن عبد الله.

وبالفعل، نجحت البعثة المغربية في إطلاق سراح جميع الأسرى المغاربة، وبعض الأسرى من الدول الإسلامية الأخرى. وانتهى المطاف بالبعثة المغربية والأسرى المسلمين إلى مدينة بادس، حيث تلاحقت الأفواج المتبقية من أسرى المدن الأخرى (برشلونة – الكراكة...) ليصبح مجموع الأسرى المفرج عنهم مائتان وتسعون نسمة. وقد تطرق أحمد الغزال إلى الإكرام الذي تلقاه الأسرى من طرف أهل بادس، ولم يبقى أمام البعثة المغربية، إلا الاطمئنان على حالهم وحملهم في السفن نحو المغرب.

خامسًا: ظروف استقبال السلطان المغربي محمد بن عبد الله للبعثة المغربية وممثل الدولة الإسبانية، وما رافقهم من كتب وأسرى محررين

بعد إقامة البعثة المغربية لفترة ليست بالقصيرة ببادس، خرجت في آخر المطاف من هذه المدينة باعتبارها آخر محطة بالأراضي الإسبانية قاصدة مدينة تطوان المغربية بحرا، فوصلوا إلى بر الأمان بشواطئ مرتيل بالقرب من مدينة تطوان، حيث تلقاهم جمهور غفير بآلات الطرب والمدح، زيادة على استعراض للآلات الحربية على شواطئ بحر مرتيل، وبعد نزول البعثة المغربية والباشدور الإسباني المصاحب لهم إلى شواطئ مرتيل، أُرسلت سفن مغربية لملاقاة السفن الإسبانية التي تحمل الأسرى المسلمين المفرج عنهم، وما لبثت أن وصلت السفن إلى بر الأمان وسط جو من الفرحة لا تضاهيها فرحة الأعياد والمناسبات حسب تعبير أحمد الغزال.

مكث الباشدور الإسباني ومن معه ليلتهم داخل السفن الإسبانية بشواطئ مرتيل لأغراض شخصية، بينما توجهت البعثة المغربية إلى المبيت في البر؛ وفي الليل هُيأت الأطعمة والمأكولات وأُرسلت إلى البعثة الإسبانية. وفي الغد نزل الجميع إلى البر متوجها نحو مدينة تطوان، حيث تم استقبالهم من طرف حاكم وقائد مدينة تطوان وبعض أعيانها، وسط جو من الاحتفالات والاستعراضات العسكرية وركوب الخيل إلى أن دخلوا إلى دار الضيافة، وهي من أبهى وأحسن دور الضيافة

بتطوان، حيث قام المسؤولون على الدار بإكرام البعثة الإسبانية أحسن إكرام، كما أكرموا الأسرى المسلمين خير إكرام من أكل وملبس وتطبيب. وبقيت البعثة المغربية والإسبانية والأسرى المحررين بمدينة تطوان ما يزيد عن الشهر بسبب الأمطار الغزيرة والسيل الجرف.

وبعد استقرار الأحوال الجوية، خرجت البعثة المغربية والإسبانية ومن معها من أسرى محررين، من مدينة تطوان، قاصدين الطريق المؤدية إلى مراكش مرورا بعدة مدن وقرى وقبائل مغربية، وسط جو من الاحتفالات وإطلاق البارود إلى أن وصلوا إلى محل دار المبيت بإحدى القبائل؛ ومن الغد توجهوا نحو قبائل طليق والخلط، ومن تم دخلوا لمدينة القصر الكبير وسط حشود غفيرة لا حصر لها، حيث وصفها أحمد الغزال على الشكل التالي: «ولما وصلنا القصر وجدنا به من الخيل والخلق ما لا حصر له وقد جالت الخيل بين صفوف الرماة ومطلق القوم، وقد أبلوا بلاء حسنا في اللعب بالبارود بقية يومهم. ولما جن الليل أقبل أهل القصر بالطعام الكثير على اختلاف أنواعه وقد فضل منه أكثر مما أكل، وبقيت القصع والموائد العديدة فاضلة بعد إطعام العساكر المذكورة، وشاهد الكافر من ذلك ما أذهله».[٢٤]

ومن مدينة القصر الكبير انطلقوا نحو منطقة العشائر إلى أن وصلوا إليها، وسط جو من الاحتفالات الكبيرة، جعلت الباشدور الإسباني مندهشا من ذلك، وأجبرته على تدوين ما يشاهده حسب تعبير أحمد الغزال. وبعد يومين من الضيافة في منطقة العشائر، توجهوا نحو بسائط الغرب من قبائل سفيان وبني مالك، حيث استقبلهم رجالها بالخيل مرتدين أفخر الثياب، في جو من الاحتفالات، إلى أن وصلت البعثة ومن يرافقها إلى دار الضيافة، فأُكرموا غاية الإكرام بما فاق من سبقهم. ومن الغد انتقلت البعثة المغربية ومن معها نحو مدن المهدية وسلا والرباط وسط احتفالات كبيرة وحشود عظيمة، وبعد إقامتهم يومين في مدينة سلا، توجهوا إلى مدينة رباط الفتح عبر البحر، ومن هذه الأخير إلى دكالة والمناطق المجاورة لها، حيث عمل حاكمها على استقبال البعثة المغربية ومن معها، وإكرامها وسط جو من الاحتفالات.

واستعدادًا لمغادرة منطقة دكالة عمل مُشرفوها على اصطحاب البعثة المغربية ومن معها إلى مدينة مراكش مكان تواجد السلطان المغربي محمد بن عبد الله. وبمجرد وصول الجميع إلى مدينة مراكش أرسل السلطان المغربي وفدا للسلام عليهم وتهنئتهم على وصولهم بسلام صحبة الأسرى الذين أُطلق سراحهم؛ وعجل الوفد المغربي باصطحاب الأسرى إلى قصر السلطان المغربي بمراكش حيث كانت الاحتفالات على أشدها، خصوصًا وأن وصول البعثة المغربية إلى قصر السلطان تزامن مع عيد الأضحى المبارك، وعند ذلك تم تقديم الأسرى المسلمين، والكتب التي تم جلبها من إسبانيا إلى السلطان المغربي، وقد بلغ عدد أسرى المسلمين ٢٩٠ أسيرًا، وكل أسير يحمل كتابًا معه في الدخول على السلطان، فرحب السلطان محمد بن عبد الله بجميع الأسرى وأمر بكسوتهم وإكرامهم وترحيلهم إلى مدنهم وبلدانهم؛ ومن تم استقبل الباشدور الإسباني، فقدم هذا الأخير هدية عظيمة للسلطان المغربي مُرسلة من الملك الإسباني.

مكث الباشدور الإسباني ما يزيد عن شهر في ضيافة السلطان المغربي مكرما معززا، ومن تم طلب الإذن بزيارة مدينة الصويرة، وذلك بهدف الاطلاع على مَرسَاهَا التي خلقت الرعب في قلوب الأوربيين عامة، والإسبان خاصة، فأذن له السلطان، وأمر بإكرامه ومعاملته معاملة تليق بمقامه، وأمر خادمه بمصاحبته إلى المرسى للإشراف على ركوبه من هناك للرجوع إلى بلاده عبر البحر، فصاحبت البعثة المغربية الباشدور إلى مدينة الصويرة، حيث وصف أحمد الغزال الحشود التي تلقتهم في الطريق، وما صاحبها من احتفالات وركوب الخيل، وقد مكث الباشدور والبعثة المغربية شهرين بمدينة الصويرة في انتظار وصول السفن الإسبانية التي رست في مرسى مرتيل، ولما وصلت السفن، قام الوفد المغربي بشحن السفن الإسبانية بأنواع المأكولات وبعض الهدايا، لتنطلق السفن عائدة إلى إسبانيا.

سادسًا: نتائج الرحلة السفارية لأحمد الغزال

عرفت رحلة أحمد بن المهدي الغزال شُهرة كبيرة، وواسعة الانتشار، أولا: لأهميتها الدبلوماسية خلال القرن الثامن عشر الميلادي؛ وثانيا: لأن صاحبها ومؤلفها هو أحد المستشارينَ المقرَّبينَ للسلطان المغربي محمد بن عبد الله، ومن رجالات الدَّولة الكبار؛ وثالثًا: لأسلوبها الممتع في الوصف، حيث كُتبَت بدِقَّة لغوية وأسلوبية ممتعة، وتحمل بين طياتها أخبار كثيرة ومهمة. وجاءت الرحلة السفارية إلى إسبانيا بسبب وضعية الأسرى المسلمينَ هناك، وسوء معاملتهم إلى درجة كبيرة من قِبل السلطات الإسبانيَّة، فكتبوا رسالةً إلى السلطان المغربي محمد بن عبد الله، يَشْكون مما نالَهم مِنَ التَّعَسُّف والإهانة، ومما يكلفون به منَ أعمال شاقَّة في شَقِّ الطُّرُق وغير ذلك، مع قِلَّة العناية بأكْلِهم ولباسِهم، فتأثَّر السلطان لحالِهم، واهْتَمَّ

بِمصِيرِهم، فكتب إلى كارلوس ملك إسبانيا أن يهتمَّ بأمْرِهم عمومًا، وبِحَفَظَة القرآن والعَجَزة منهم خُصُوصًا، كما يفعل هو بتمييز القساوسة ورجال الدِّين منَ الأسرى الإسبان الذين يوجَدون في يده.[٢٥]

وانتهى الأمر إلى أنْ أرسل السلطان المغربي بعثة مغربية على رأسها أحمد الغزال، أحد كتَّابه الكِبار، في سفارة إلى إسبانيا، ونجحتْ سفارته، حيث إنَّ المَلِك الإسباني أطْلَقَ سراح الأسرى المغارِبة، وعمل على تحسين ظروف بقيَّة الأسرى المسلمين (الجزائريين والأتراك ...). [٢٦] ونجح في ربط علاقة دبلوماسية بين الدولتين تُوِّجت بإبرام معاهدة بينهما. يقول محقق الرحلة في هذا الصدد: «فقد أدت سفارة أحمد الغزال إلى التقارب بين البلدين توجته معاهدة عقدت بين السلطان عبد الله والملك كارلوس الثالث في سنة ١١٨١هـ. (٢٦ مايو ١٧٦٧م)، وقد كان تحرير نصوص المعاهدة على يد أحمد ابن الغزال».[٢٧]

ومن نتائج نجاح البعثة المغربية برئاسة أحمد الغزال، أن تجاوزت العلاقة بين البلدين -المغربي والإسباني- لتشمل العلاقات الجزائرية - الإسبانية أيضا، بحيث عمل السلطان محمد بن عبد الله جاهدا عن طريق نفس البعثة المغربية، بالتوسط بين إسبانيا والجزائر لتبادل الأسرى فيما بينهم، وتطبيع العلاقة الثنائية، وهو ما نجح فيه بالفعل بعد تكرار مسعاه لثلاث مرات.[٢٨] وقد أظهرت هذه الخطوة السلطان محمد بن عبد الله بمظهر المتضامن مع إخوانه في الدين، والساعي إلى خدمة الإسلام والمسلمين بعد افتكاك الأسرى من رعايا الدولة العثمانية –الجزائرية،[٢٩] فقد أرسل السلطان محمد بن عبد الله أموالا كثيرة للباب العالي أظهر بها مشاركته في الجهاد معه ضد أعداء دولته، وأنه يمكن أن يعول عليه أكثر من داي الجزائر الذي لم يستطع تقديم أي شيء.[٣٠] ومن هنا نفهم افتكاك محمد بن عبد الله لأعداد كبيرة من أسرى الجزائر وإرسالهم إلى القسطنطينية.[٣١]

وقد نجحت مساعي السلطان المغربي نسبيا في تحقيق هذا الهدف، وهو ما يمكن أن نفسر به عتاب الباب العالي على الوالي الجزائري بعدم قبول شفاعة السلطان المغربي في فك الأسيرتين الإسبانيتين (زوجة وابنة الحاكم الإسباني للمرسى الكبير)، وهو الذي افتدى مئات أسرى الجزائريين. وقد كان الملك الإسباني كارلوس الثالث طلب من السلطان المغربي التدخل عند الداي الجزائري لفك سراح بعض الأسرى ومنهم الأسيرتين المذكورتين.[٣٢]على أي، فنجاح رحلة البعثة المغربية برئاسة أحمد الغزال، كما يقول المحقق: «سمح لأحمد الغزال بتدعيم مركزه في قصر السلطان بحيث أصبح من كبار رجال المخزن ومن مستشاري الملك المقربين».[٣٣]

وفي أواخر سنة (١١٨٤هـ/ ١٧٧١م)، أقدم السلطان المغربي محمد بن عبد الله من ضرب حصار على مدينة مليلية من أجل استرجاعها إلى التراب المغربي، فشرع بقصفها ومحاصرتها أياما إلى أن كتب إليه العاهل الإسباني كارلوس الثالث رسالة يُذكره فيها بمعاهدة الهدنة والصلح المعقودة بين الدولتين، فرد عليه السلطان المغربي بأن المعاهدة تتضمن الهدنة والصلح في البحر، ولا تشمل الثغور المغربية المحتلة، فما كان من ملك إسبانيا إلا أن أرسل نص المعاهدة، والتي تضمنت الهدنة والصلح في البر والبحر، وإزاء ذلك أقدم السلطان المغربي على فك الحصار واشترط على الإسبان نقل المعدات الحربية إلى مراسي تطوان والصويرة فوافقوا على ذلك بكل ترحيب.[٣٤]

وهذا الفشل العسكري والدبلوماسي أثار سخط السلطان محمد بن عبد الله، وصب جام غضبه على أحمد بن المهدي الغزال، وعمل على إقالته من مناصبه، بسبب تقصيره في عدم الاحتياط من عبارةٍ كَتَبَها في المعاهَدة، استطاع أن يزوِّرَها الإسبان، إذ كتب أحمد الغزال: «في صدر المعاهدة ما نصه: {إن المعاهدة بيننا بحرا لا برا}. فلما وقع صك المعاهدة في أيدي الإسبان، عمدوا إلى التزييف، فمحوا اللام والألف وجعلوا مكانها واوًا، فصار النص: {برًا وبحرًا}».[٣٥] وإثر هذه الإقالة المفاجئة لأحمد الغزال من مناصبه، انتقل إلى مدينة فاس حيث أقام مغمورا، فأصيب بالعمى، وبقي على ذلك الحال إلى أن وافته المنية سنة (١١٩١هـ/ ١٧٧٧م)، ودفن في زاوية عبد القادر الفاسي بمدينة فاس.[٣٦] ومما تجدر الإشارة إليه، أن الأتراك الجزائريين تسببوا في مشاكل كثيرة للسلطان المغربي في علاقاته مع إسبانيا التي عقد معها معاهدة الصلح والتجارة، فقد كانت القرصنة البحرية الجزائرية ضد السفن الأجنبية في السواحل المغربية تحرج المغرب مع إسبانيا، وتهدد العلاقة السلمية بينهما. وقد بقي السلطان محمد بن عبد الله رغم مشاكل الإيالة الجزائرية، وفيا لعلاقات الود والاحترام التي ربطها مع الباب العالي إلى آخر أيامه.

سابعًا: استنتاجات وملاحظات

- المؤلف أحمد الغزال استعمل أسلوب رائع في الوصف، موظفا اللغة العربية الفصحى مع إدراج بعض الكلمات ذات الأصل الإسباني، مثال على ذلك: الإسبيطال (المستشفى)- الشلية (الكرسي)- الكورطي (رجال البلاط الملكي)- الفسيان (ضباط القصر)- الأكداش (أحد الدواب)- الفرايلي (رجل دين مسيحي)....، إلى غير ذلك من الكلمات الأخرى.
- المؤلف عندما يتحدث عن العاهل الإسباني، يصفه بالطاغية مثال على ذلك: «أو طاغيتكم- بما أمرهم به طاغيتهم ...»، باستثناء مرة أو مرتين يذكره بلقب غير لقب الطاغية، وذلك في قوله: «فما عليك {أحد رسل العاهل الإسباني} إذا استأذنت عليك عَظيمُكَ».[٣٧]
- عند ذكر السلطان المغربي، يصفه بأعظم عبارات التقدير والشكر والتعظيم، مثال: المنصور بالله – أيده الله وحفظه – سلطاننا المعظم- من صلة مولانا المنصور بالله ...،[٣٨] - ما أودع الله تعالى سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة.[٣٩]
- عندما تكون مبالغة في الاستقبال من الجانب الإسباني، يرجع المؤلف ذلك إلى خوفهم من السلطان المغربي، مثال: «وأعيانهم {الإسبان} راجلين أمامنا متأدبين كأنما على رؤوسهم الطير! فأنظر إلى عزة الإسلام وما أودع الله تعالى في سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة».[٤٠]
- يدقق في أدنى تفاصيل المباني الإسلامية.
- انتقاده لسلوكيات الشعب الإسباني، واحتقاره لبعض عاداته.
- تمجيد بعض الأشياء، وخاصة المباني الإسلامية، وتحقير بعضها.
- تشبيه بعض الأشخاص بانتمائهم إلى أهل الأندلس، وبالتالي اعتبارهم من المورسكيين الذين بقوا هناك بعد الطرد التعسفي لأغلبهم.
- عدم التفصيل في وصف بعض الأشياء كالآلات الحربية، وعدد الجنود ورتبهم...، وبالمقابل التفصيل في كيفية الاستقبال، وأجواء السهرات والحفلات.
- إعجاب أحمد الغزال بصوت المغنيات والراقصات.
- الاستخفاف بقدرة إسبانيا، والتمجيد بقدرات الدولة المغربية.
- الاستخفاف بقدرة الجنود الإسبان، والتعظيم من قدرات المغاربة في الجهاد، مثال على ذلك: «ومع ما هم عليه من هذه الجموع الوافرة، لا قدرة لهم على مباشرة القتال صفا صفا. إلا ما كان من رمي المدافع والبُنْبُ، واستعمال الخدائع. وما في معنى ذلك. وأما المحاربة على بسط الأرض بالخيول والرمات مكافحة من غير حصن فلا طاقة لهم بذلك – ولولا أن حماهم البحر لاستوعبهم الهلاك في أقرب مدة وهم عارفون بذلك».[٤١]

نستنتج أن غرض إسبانيا من الإكرام الزائد والاستعراض العسكري المتكرر، وما انضاف إليها من اطلاعي البعثة المغربية على الآلات الحربية، كان الغرض منه هو ضرب مخيلة البعثة المغربية، واستبيان لما هم عليه من نعيم الخيرات والقوة العسكرية الكبيرة.

وفيما يخص تزوير المعاهدة بين المغرب وإسبانيا، التي أشرف عليها أحمد الغزال والبعثة المغربية، ووقعها الغزال على أساس أن الهدنة بين الدولتين "بحرا لا برا"، فتم تحريفها من طرف الإسبان إلى "بحرا وبرا"؛ فالملاحظة التي يجب التنبيه إليها هي أن أمر التزوير وارد بشكل كبير، لكن الإغراء والرشوة، أمران واردان، ويمكن أن تنغمس فيهما البعثة المغربية؛ وبالتالي فتوقيع المعاهدة كما وردت عند الإسبان "بحرا وبرا"، لا يمكن الجزم فيها -في غياب أدلة واضحة- عن طريق التزوير أو الرشوة والإغراء، ولا ترجيح الأولى عن الثانية أو العكس.

ورحلة أحمد الغزال لم تكن هي الرحلة الديبلوماسية الأولى إلى أوروبا، فانطلاقًا من القرن السادس عشر الميلادي، عرف المغرب رحلات سفارية كان الهدف منها إجراء محادثات سياسية أو تحديد موقف من معاهدة أو مجرد استشارة في أمر من الأمور السياسية والدبلوماسية والاقتصادية وغيرها. وتمت معظم هذه الرحلات السفارية إما إلى الخلافة العثمانية أو الدول الأوربية. وعرفت الدولة العلوية الكثير من الرحلات السفارية منذ عهد السلطان إسماعيل العلوي. والملاحظ أن كل رحلة سفارية تأتي عقب ظروف معينة أو غداة حدث طارئ.

وهكذا بعد تولي السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧م-١٧٩٠م) الحكم، دشن قطيعة حقيقية مع الماضي، ونهج سياسة انفتاحيه شاملة، خصوصا مع الإمبراطورية العثمانية، فأصبح التضامن الإسلامي هو السبيل الوحيد للعلاقات المغربية العثمانية خلال هذه الفترة.[٤٢] وكذلك ازدهرت الدبلوماسية المغربية والسفارات اتجاه الدول الأوربية، والتي اتخذت من

موضوع تحرير أسرى المسلمين محركا أساسيا لها، وهذا ما يفسر المبالغ المالية الكبيرة التي أنفقت عليها. وكانت عملية افتداء الأسرى عامةً، حيث شملت المغاربة وأسرى رعايا الإيالة الجزائرية التي كانت تابعة للدولة العثمانية.[٤٣]

خَاتمَةٌ

وخاتمة القول، تبقى رحلة أحمد الغزال من أهم الرحلات المغربية التي تركت بصماتها على أدب الرحلات المغربية والعربية والعالمية، وأيضا تركت بصماتها على تاريخ الغرب الإسلامي، بحيث إذ اعتبرنا أن أدب الرحلات في ميدان المعرفة الإنسانية يشكل مصدرا جديدا ضمن حقل التاريخ، فهو يقدم مادة غنية شاملة لزخم كبير من الحقائق. وقدم إضافات إلى جانب المصادر الأخرى ككتب النوازل، والكناشات والتراجم...، لأن أية محاولة للبحث في ذلك التاريخ الدفين للعالم الإسلامي في علاقته مع العالم الغربي-المسيحي، تتطلب منا الوقوف وتمحيص كل مصادر الكتابة الإنسانية على اختلاف تلويناتها. وأدب الرِّحلات نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر. وقد جاءت رحلة أحمد الغزال في إطار سفارة بين المغرب وإسبانيا، تتعلق بعدة مواضيع من بينها افتكاك الأسرى المسلمين، واسترجاع بعض الكتب التراثية الإسلامية الواقعة تحت طائلة الإسبان منذ عصور. وإذا كان الغزال قد نجح في المهمة الأولى، فإن مهمته الثانية لقيت نجاحا محدودا. ومن الملاحظ أن المغرب اختار لهذه المهمة السفارية رجلا أندلسي الأصل يرتبط نوعا ما بالماضي المجيد لهذا البلد.

الاحالات المرجعية:

(١) رزوق، محمد، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦- ١٧**، طبع ونشر: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص: ٥٢.

(٢) نفسه، ص: ٥٢.- ٥٣.

(٣) السعود، عبد العزيز، " **اتفاقات تسليم غرناطة ومحاولة استيعاب المورسكيين ثم طردهم من اسبانيا** "، مقال (ع، ص: من ٢٠ الى ٢٨) من سلسلة المقالات " سميائيات " المجلة المتوسطية للأشكال الحضارية، تحت عنوان: ١٦٠٩-٢٠٠٩: ذكرى مرور ٤٠٠ سنة على طرد الأندلسيين من اسبانيا، تنسيق عبد العزيز السعود، العدد: ٣- ٤ ، تطوان، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٩- يناير ٢٠١٠ ، ص:٢١ – ٢٢.

(٤) نفسه، ص: ٢٣.

(٥) نفسه، ص: ٢٧.

(٦) رزوق، محمد، م. س، ص: ١٢٩.

(٧) القادري، محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق، هاشم العلوي القاسمي، طبع ونشر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص: ٥٠.

(٨) الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** – الدولة السعدية – القسم الثاني، الجزء ٦، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة الطبع: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٩٢.

(٩) الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** – الدولة العلوية- ، الجزء ٧، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء، سنة الطبع: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٢٧.

(١٠) انظر التفاصيل: الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، - الدولة العلوية-، القسم الثاني، الجزء الثامن، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٢٣ – ٢٤.

(١١) الكتاني، محمد، **سلوة الأنفاس ومقارعة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس**، الجزء الأول، تحقيق: حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص: ٣٧٣-٣٧٤.

(١٢) الفاسي، عبد الكبير، **تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين**، موسوعة أعلام المغرب، الجزء السابع، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٢٤١٠.

(١٣) الغزال، أحمد، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد: رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس**، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته، اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص: ١٠- ١١.

(١٤) نفسه، ص:٣٧.

(١٥) الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٢٣

(١٦) نفسه، ص: ٢٣ – ٢٤.
(١٧) نفسه. ص: ٢٤.
(١٨) الغزال، أحمد، نفسه، ص: ١٤١- ١٤٢.
(١٩) نفسه، ص: ١٤٣.
(٢٠) نفسه، ص: ١٥٣.
(٢١) نفسه، ص : ١٥٣- ١٥٤.
(٢٢) نفسه، ص: ١٧٧- ١٧٨.
(٢٣) نفسه، ص: ١٧٩.
(٢٤) نفسه، ص: ٢٢٦.
(٢٥) الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٢٣
(٢٦) نفسه، ص: ٢٣- ٢٤. الغزال، أحمد، نتيجة الاجتهاد ...، ص: ١١.
(٢٧) أحمد الغزال، نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢٨) نفسه، ص: ١١- ١٣.
(٢٩) الغاشي، مصطفى، **الرحلة المغربية والشرق العثماني**، محاولة في بناء الصورة، بحث لنيل درجة الدكتورة في التاريخ الحديث، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢. (مرقونة)، ص: ٨١.
(٣٠) بنحادة، عبد الرحيم، **المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراس، فاس، ص: ٢٩٥.
(٣١) المكناسي، محمد بن عبد الوهاب، **إحراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**، تحقيق وتعليق ودراسة، محمد بوكبوط، بحث لنيل أطروحة دكتوراه الدولة في الآداب تخصص تاريخ، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١، ص: ٢٥.
(٣٢) الغزال، نفس المصدر، ص: ١٢.
(٣٣) نفسه، ص: ١٣.
(٣٤) نفسه، ص: ١٣- ١٤.
(٣٥) نفسه، ص: ١٤.
(٣٦) نفسه، ص: ١٤- ١٥.
(٣٧) نفسه، ص: ١٤٠.
(٣٨) نفسه، ص: ١٢٥.
(٣٩) نفسه، ص: ١١٣.
(٤٠) نفسه. نفس الصفحة.
(٤١) نفسه، ص: ١١٢.
(٤٢) الغاشي، مصطفى، ن. م، ص: ٧٨.
(٤٣) للمزيد من التفاصيل حول الموضوع، أنظر خالد الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٣٨ – ٣٩.